الهوية واللغة من منظور تربوي

إعداد:

د. عبيرعيد الدويلة

أستاذ مساعد في أصول التربية

المعهد العالي للفنون الموسيقية

وزارة التعليم العالي

دولة الكويت

ترتبط اللّغة ارتباطاً قوياً بهويّة الإنسان، فهي مكون أساسيّ من مكوّنات تميّزه عن الآخرين، وتماثله مع من يشاركونه فيها، وهي الوعاء الحافظ لتاريخه وتراثه، وهي الرّابط المتين الّذي يربط الفرد بأمّته وأهله وأرضه، فلا شيء كاللّغة يعّبر عن هوية الناس. ولعلّها تكون الملحظ الأوّل الذي يصّنف النّاس عند من يختلط بهم ويتحدّث معهم.

ومن وجهة نظر معاصرة لعلوم اللّغة فإنّ الهُويّة الدّينيّة والوطنيّة والعرقيّة تتشكل باللغة، وتتشكّل اللّغة بها، فأيّ دراسة للّغة تحتاج أن تُدْخِل الهُويّة في عناصرها الأساسيّة إذا كانت تهدف أن تكون دراسة كاملة وغنيّة وذات مغزى؛ لأن الهُويّة تقع في صميم ما تعنيه اللّغة، وفي آليّة عملها، وكيفية تعلّمها وكيفيّة استعمالها، كلّ يوم، من كلّ شخص و في كل وقت [1].

وإذا كانت كلّ اللغات ترتبط بهويّة من يتكلّمها فإن اللّغة العربيّة لها خصوصيّة فريدة عند أهلها من العرب، وعند عامّة المسلمين من غير العرب، لأنّها لغة كتاب الله الذي أنزله على رسوله بلسان عربي مبين، ولذلك تكتسب العربية قدسيّتها في قلوب الملايين من المسلمين من قدسيّة القرآن الكريم الذّي يمثّل دستور حياتهم ومرجعيّتهم في كلّ شؤونهم الدّنيويّة والأخرويّة.

ولكن اللُّغة العربيّة تواجه في هذا الزّمن تحديّات عظيمة وصعوبات جمّة، فلا يكفي أن تتصدّى لتنافس اللّغات الأجنبية التي انتشرت وعمّت وسادت، بل إنّها تواجه ما هو أصعب من ذلك، فهي تعاني من زهد أهلها بها، وانصرافهم عنها، وعدم التفاتهم إليها، ولذلك فهي أحوج إلى تكاتف الجهود العلميّة والماديّة والبشريّة، لإعادة الاعتبار لها، وللنّهوض بها بين أهلها أوُلاً، وفي جموع المسلمين ثانياً، وفي العالم كلّه ثالثاً.

وفي هذه الورقة سنتعرض إلى في مفهوم الهوية، ومستوياتها، وفهم الفرق بين الهوية والانتماء، ومن ثم وقفة، مع علاقة الانتماء والهوية باللغة من منظور تربوي.

---

[1] john E joseph, Language and Identiy: National, Ethnic.Religious, Palgrave Macmillan, New York, ٢٠٠٤ ,p ٢٢٤

وانظر: نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث، قيم الثبوت وقوى التحول، دار الشروق عمان، ٢٠٠٦، ٥٨-٦٦.

Yasier Suleiman, The Arabic Language and National Identiy, Georgetown University press, Washington, D.C, ٢٠٠٣, P ٢٧-٣٣

في مفهوم الهوية:

يتميز مفهوم الهوية بطبيعته الميتافيزيائية التي تدفعه خارج دائرة التحديد والتعريف. ومن هذا المنطق يتجنب كثير من الباحثين استخدامه، ويتهيب بعضهم توظيفه، وهم إن وظفوه يتجنبون تعريفه. ومع هذه الصعوبة المعلنة فإن هذا المفهوم يمتلك قابلية سحرية للظهور في مختلف المقولات وذلك لأن عموميته ودرجة تجريده عالية جدا وتفوق عمومية أغلب المفاهيم المقابلة والمعارضة له. فمفهوم الهوية من المفاهيم "الشبحية" أي أنها تبتعد كلما اشتد المرء في طلبها.

سؤال الانتماء: هو المدخل المبسط جدا في تعريف الهوية ويكون بالإجابة على سؤال الانتماء: من نحن؟ هل نحن عرب أم مسلمون؟ هل نحن قبائل أم عشائر أم طوائف؟

وفي دائرة هذا المدخل يشار إلى سؤال الماهية: ما هي السمات والخصائص التي تعبر عن هوية الإنسان وكيفية الشعور بها كأن أقول: "من أنا": إنني كائن يمتلك شروط القوة والاقتدار، أثق بنفسي، وأبدع في مجال الحياة. وهذا السؤال يحدد لنا بنية الهوية ومكوناتها.

فالهوية بالتعريف البسيط أيضاً هي: نَسَقٌ من الخصائص والسمات التي تعطي للفرد أو الجماعة وحدتها وتميزها ودرجة تكاملها وماهيتها واتجاهات انتمائها.

فالهوية هي وحدةٌ من المشاعر الداخلية التي تتمثل في الشعور بالاستمرارية والتمايز والوحدة والديمومة. والهوية تأسيسا على ذلك هي وحدةٌ من العناصر المادية والنفسية المتكاملة التي تجعل الشخص يتمايز عما سواه ويشعر بتباينه ووحدته الذاتية. ويورد "جان فريمون" تعريفا للهوية قوامه "إن الهوية إحساس متماسك بالذات وهي تعتمد على قيم مستقرة وعلى قناعة بأن أعمال المرء وقيمه ذات علاقة متناغمة فالهوية شعور بالكلية وبالاندماج وبمعرفة ما هو خطأ وما هو صواب" [1].

وباختصار فإننا نميز في مفهوم الهوية بين ثلاثة مستويات:

أ- موضوع الهوية ونقصد بذلك الكينونة الموضوعية للهوية: ويتجلى هذا الموضوع في كينونة اجتماعية تتبدى خارجيا بصورة مستقلة عن وعي الناس وإرادتهم وتجري حركة هذه الكينونة على أساس الوحدة والانسجام والتكامل. فالمجتمع العربي يشكل وحدة اجتماعية مستقلة عن

[1] جان فريمون، تلاقي الثقافات والعلاقات الدولية، الفكر العربي المعاصر، مجلة العلوم الإنسانية، عدد، ٩٢ كانون الثاني، ١٩٨٤، (ص ص ٨٤-٩٣)، ص٩١.

وعينا وإرادتنا بصورة موضوعية شئنا أم أبينا وذلك في المستوى الثقافي فهناك روابط جغرافية وثقافية وتاريخيه تربط بين أطراف هذا الوطن وتحقق وحدته.

ب- بنية معرفية الهوية: أو الوعي الموضوعي بالهوية: قد يوجد موضوع الهوية في نسق من المفاهيم المجردة التي يبدعها العقل الإنساني وهذه المفاهيم تشكل ما يسمى بوعي الهوية وهي الأفكار التي تتصل بالمجتمع العربي الذي يشكل وحدة ثقافية تاريخية وجغرافية. والوعي الموضوعي يمثل معرفة بالهوية ومكوناتها.

ت- بنية تعبر عن وجدانية مشاعر الهوية أو الشعور الوجداني بالهوية: قد يكون الوعي بالهوية موضوعيا بمعناه المعرفي. فمعرفة الشيء لا تفرض ولادة مشاعر نحوه. وبمثالنا السابق فإن بعض العرب يدركون عناصر الوحدة الثقافية التي تربط العرب ببعضهم البعض تاريخيا وجغرافيا ولكنهم لا يحملون أية مشاعر سلبية كانت وإيجابية نحو هذا الموضوع.

وعلى خلاف ذلك فإن الوعي بالهوية قد يولد شهوراً وجدانياً وانفعالياً بها. أي إن هذا الوعي يولد أحساساً إيجابياً بالانتماء إلى هذه الهوية والدفاع عنها وتمثلها وجدانياً. ونعني بالتمثيل الوجداني عندما يتم تغذية الوعي الموضوعي بالهوية بمشاعر المحبة والولاء والانجذاب والإيمان.

بين الهوية والانتماء:

يتشاكل مفهوم الهوية والانتماء في تقطاعات عدة تطرح نفسها منذ زمن بعيد على بساط البحث العلمي. إذ غالباُ ما يستخدم أحدهما مكان الآخر في الأدبيات الاجتماعية المعاصرة إذ يدخل مفهوم الانتماء في تكوين مفهوم الهوية ويشكل عنصراً من عناصره.

ويشكل الانتماء جذر الهوية الاجتماعية وعصب الكينونة الاجتماعية. فالانتماء هو إجابة عن سؤال الهوية في صيغة من نحن؟ والانتماء أيضاً هو صورة الوضعية التي يأخذها الإنسان إزاء جماعة أو عقيدة، كما أنه يشكل مجموعة الروابط التي تشد الفرد إلى جماعة أو عقيدة أو فلسفة معينة، وقد يأخذ صورة شبكة من المشاعر، ومنظومة من الأحاسيس التي تربط بين الفرد والمجتمع، وهذا بدوره يؤسس أيضاً لمجموعة من العلاقات الموضوعية التي تتجاوز حدود المشاعر إلى منظومة من الفعاليات والنشاطات التي يتبادلها الفرد مع موضوع انتمائه. فالفرد في القبيلة يشكل صورة مطابقة لصورتها، إذ يحمل روحها ويجسد معانيها ويستلهم عاداتها وتقاليدها، إنه صورة مصغرة لقبيلته بكل ما تنطوي عليه من معان ومشاعر وقيم وعادات. وهذا يعني أنه يطابقها ويعبر عنها، وتلك هي صورة الهوية لأن مفهوم الهوية يعني المطابقة بين شيئين في نسق وحدة واحدة.

ويميل الباحثون، في مجال علم الاجتماع التربوي، إلى أنّ تحديد الانتماء الاجتماعي للفرد إنما يكون حسب معيارين أساسيين متكاملين هما: العامل ا لثقافي الذاتي الذي يأخذ صورة الولاء لجماعة معينة أو عقيدة محددة، ثم العامل الموضوعي الذي يتمثل في معطيات الواقع الاجتماعي الذي يحيط بالفرد أي الانتماء الفعلي للفرد أو الجماعة. فالولاء وهو الجانب الذاتي في مسألة الانتماء يعبر عن أقصى حدود المشاركة الوجدانية والشعورية بين الفرد وجماعة الانتماء فالولاء حالة "دمج بين الذات الفردية في ذات أوسع منها، وأشمل، ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءاً من أسرة أو من جماعة، أو من أمة، أو من الإنسانية جمعاء [1]

فقد ينتمي الفرد بالضرورة إلى قبيلة ولكنه لا يشعر بالولاء لها، وعلى خلاف ذلك فقد لا ينتمي المرء إلى قبيلة محددة ولكنه قد يكون قبلياً بمفاهيمه وتصوراته. فالانتماء الفعلي يفرض نفسه ويتجاوز حدود وأبعاد العامل الذاتي وذلك كله مع اعتبار إمكانية التطابق بين العنصرين، فقد يكون المرء عربياً ومؤمنا بعروبته، أو مسلما مؤمنا بإسلامه في الآن الواحد، وهذه هي حالة التطابق بين الانتماء والولاء. وإذا كان الفصل بين هذين العاملين يعود إلى اعتبارات منهجية سوسيولوجية ضرورية، لتحليل ودراسة الانتماء الاجتماعي للأفراد، فإن الباحثين يدركون بعمق مدى التأثير المتبادل القائم بين العاملين في تحديد هوية الانتماء الاجتماعي للفرد. فالانتماء هو شعور الفرد بالارتباط بالجماعة وميله إلى تمثيل أهدافها والفخر بحقيقة أن الفرد جزء منها، والإشارة الدائمة إلى الانتماء ولاسيما في لحظات الخطر [2]

وفي هذا السياق يمكن التمييز أيضاً بين الانتماء وشعور الانتماء، فالانتماء هو حالة موضوعية يفرضها واقع الحال كأن ينتمي الإنسان إلى قومية معينة كالقومية العربية فمن يتكلم العربية ويعيش على أرض العرب هو عربي بالضرورة ولا يمكنه الخروج من دائرة هذه الهوية. أما شعور الانتماء فقد يتطابق مع البعد الموضوعي لانتمائه وقد يخالفه أو يتناقض معه فالعربي الذي يتكلم العربية ويعيش على أرض العرب قد تأخذه مشاعر الانتماء الى العروبة حبا وافتداء واقتداء وعلى خلاف ذلك قد تغيب لديه هذه المشاعر وتضعف لديه روابط العروبة وأحاسيسها فتحدث المفارقة بين واقع الانتماء ومشاعره.

وإذا كان الواقع الموضوعي يفرض على الإنسان مجموعة من الانتماءات فإن هذه الانتماءات تأخذ نسقاً تتكامل فيها أو قد تتعارض. فنسق الانتماء يعني الوضعية التي يأخذها الإنسان إزاء وضعيات انتماءات متعددة، والتي تأخذ سلما ترتسم على مدرجاته اتجاهات الانتماء المختلفة.

---

[1] ـ زكي نجيب محمود، قيم من التراث، دار الشروق، بيروت ١٩٩٠، ص ٣٩١.

[2] ـ عبدالمنعم المشاط، التعليم والتنمية السياسية، مرجع سابق، ص١١٧

فالإنسان محكوم بعدد من الانتماءات التي قد تتعارض أحياناً وتتناسق أحياناً أخرى. فالإنسان العربي اليوم تتخطفه مجموعة من مشاعر الانتماء كالعروبة والإسلام والقبلية والطائفية والوطن، وإزاء هذه التعددية قد يقع في صراع الهوية والانتماء، لان بعض هذه الانتماءات يعارض بعضها الآخر كالتعارض بين انتماء القبلية وانتماء الوطن. ومن هذه الزاوية يتحدث زكي نجيب محمود عن نسق الانتماء في صورة متكاملة تبدأ بالوطن وتنتهي بالإسلام حيث يعلن بأنه مصري، عربي، مسلم، ثم لا يهمه بعد ذلك أن تضاف إلى هذه الأبعاد الثلاثة أبعاد أخرى كالانتماء الأفريقي وغيره [١]. وتأسيسا على مفهوم نسق الانتماء لدى زكي نجيب محمود بين العروبة والإسلام" فالمصري مصيب إذا قال إنه ينتمي إلى العروبة وإلى الإسلام معاً (...) لأنه عربي بمعنى أنه يتجانس مع سائر العرب في نمط ثقافي واحد متعدد الجوانب والفروع، أما المصري المسلم فهو ينتمي إلى الأمة الإسلامية بجانب واحد وهو جانب العقيدة، وليس بالضرورة أَنْ تكون بقية جوانب الحياة الثقافية مشتركة بين المصري والباكستاني والإندونيسي من المسلمين غير العرب [٢]

وانطلاقا من هذه الإشكالية فإن درجة الشعور بالانتماء قد تأخذ مسارات متباينة حيث تتباين درجات شدتها بين شخص آخر. وهذا يعني أنه يمكن تحديد سلم انتماء كل فرد وفقاً لأولوية انتماءاته. فقد يشعر الإنسان بعروبته أولا وبدينه ثانياً وبقبيلته ثالثاً وبطائفته رابعاً وبوطنه في الدرجة الخامسة. وهنا يمكن القول بأن سلم الانتماء قد يتحدد ويتشكل في بوتقة من الظروف والفاعليات الإنسانية والاجتماعية التي تحدد للشخص انتماءاته ونسق أولويات مشاعره الخاصة بهويته. ومن هنا يمكن التمييز بين موضوعية الانتماء وصورته الذاتية التي تتعلق بمشاعر الانتماء الذاتية.

لقد شكلت قضية أولويات الانتماء واحدة من القضايا التي عالجها زكي نجيب محمود بعمق واهتمام كبير حيث يرى أن نسق الانتماء لا يتكامل مع نسق الأهمية، حيث يقول" فربما كانت العقيدة الإسلامية من حيث الأهمية أهم جوانب حياته، وقد يكون هذا الأساس هو المشاركة الوجدانية، فهذه المشاركة الوجدانية بيني وبين مسلم الصين أو روسيا، دون أن يغير هذا الموقف الوجداني من حقيقة كون إسلامي أهم جانب من جوانب حياتي [٣]

---

[١] - زكي نجيب محمود، فالق الحب والنوى، الأهرام، في ١٩٨٥/١١/٢٦.
[٢] - زكي نجيب محمود، في مفترق الطرق، دار الشروق، بيروت ١٩٨٤، ص ٣٥٩.
[٣] - زكي نجيب محمود، في مفترق طرق، مرجع سابق ص ٣٥٩.

وقفه:

ونحن الآن على مفترق طرق نحو إرساء البناء المتين لأمة العرب والكيان العربي الموحد، ولا شك قضية اللغة العربية ودورها التربوي والنفسي مرتبطة بقوة بهذا الاتجاه الذي نريده، وبالأهداف السامية التي نريد تحقيقها لأمتنا ومجتمعاتنا العربية، فإما أن نعتني باللغة العربية ونعطيها ما تستحقه من العناية فنُشيد بذلك مانطمح إليه من تطوير شخصيتنا الحضارية لتكون أكثر قرباً من ثوابتنا الفكرية والثقافية، وأشد ارتباطاً بتراثنا العربي، وبذلك نكون قد عززنا بقوةٍ وجدية وعقلانية فكرة الانتماء الصادق لأمتنا ومجتمعاتنا العربية بين شبابنا وشاباتنا، كما نكون قد جددنا وجلونا صورة هويتنا العربية التي تميزنا عن الآخرين. وتضمن لنا ولأجيالنا القادمة عدم الذوبان في المجتمعات الأخرى التي تسعى على طريق مؤمرات العولمة أن تسيطر علينا وعلى خيرات بلادنا. وإما أن نتخذ الطريق المخالفة.. فنسلم ونتجاهل خطورة المكانة التي تحتلها اللغُة العربية وآدابُها ومضامينُها الفكريةُ والنفسية والجماليةُ الفنيةُ في التنمية التربوية فتكون النتيجة خللاً خطيراً مع نظرة الأجيال القادمة لمستقبلها وإفساحَ المجال بصورة واسعة لسيطرة الثقافة الغربية على ثقافتنا العربية وثوابتنا الفكرية مما يؤدي بعد ذلك إلي ضياع البلاد والعباد.

ومع إيماننا بالتطور الإيجابي الذي بدأنا نلحظه في الآونة الآخرة في ميدان اللغة العربية على درب الأهداف السامية التي أشرنا إليها إلا أننا نريد المزيد، والمزيد هو الذي يجعلنا نشعر بالإكبار والاحترام والتقدير لأنفسنا من حيث إن لغتنا العربية أهم مكون من مكونات شخصياتنا وثقافتنا.

ومن هذا المنطلق فنحن جميعاً مسؤولون عن بذل أقصى الجهد بالبحث والدراسة والتحليل لوضع اللغة العربية في موضعها الصحيح والارتفاع بها إلي حيث يليق بها مقامها مادةً وتعليماً.

وقد وجدت نفسي تتجه بقوة إلي هذا الاتجاه مدفوعةً بإحساسي بالمسؤولية وراغبةً في تحّملها أو جزء منها، وقد قمت بالاطلاع والبحث في هذا الصدد.. فوجدت أن الكثير من المهتمين بشؤون اللغة العربية وتعليمها يرون أنها غارقة في بعض المتاهات التي تهبط بعزيمة القائمين على أثرها والمتصدين لتعليمها، بل وجدوا أن هذه المتاهات تُميت في مواقف تدريسها فاعلية الأثر و إيجابية الثمرة، فلابد من تناول هذه المتاهات بشيء من التحليل قصداً إلي نشر النور في ظلماتها لعل ذلك يُحدثُ في شأنها أمراً جديداً، وهذا الجديد الذي نطمح إليه هو فتح كنوز لغتنا العربية لإثراء فكرنا التربوي وفكر أجيالنا القادمة، فإن المضامين الفكرية والفنية والثقافية في لغتنا العربية وأدبنا العربي بشعره ونثره تُعَد ثروةً هائلة لإغناء الفكر العربي والإنساني وخصوصاً الفكر التربوي. وسوف نقدم بعض الأدلة على ذلك لاحقاً..

وأول شيء نريد أن نتناوله بالحديث هو ما استشعرته في تفكير البعض من أن اللغة العربية في الوطن العربي ذات طبيعة وأهداف منفصلة عن التعليم بعامة وعما يهدف إليه، وكأنهم يقولون: ادرسوا اللغة العربية بمعزلٍ عن بقية العناصر التربوية التي تبني كيان التعليم في المدارس، وهذه النظرة لاشك هي نظرة معتمة غير منطقية ولا واقعية، فلا يجوز الفصل بين فروع اللغة العربية وفنونها وبين المضامين التربوية التي تحققها تلك الفروع والفنون والتي من أهمها توظيف اللغة في الحياة العامة كلها بما يؤدي في نهاية المطاف إلى بناء العنصر الأهم في شخصية المواطن العربي إن لم يكن في بناء الشخصية بكليتها، ذلك أن العربي في وطنه العربي يفهم الناس ويفهمه الناس ويتبادل معه المنافع، وهو يقضي حوائجه عن طريق اللغة العربية، فهو بها يقرأ الصحيفة اليومية فيستنير ويزداد معرفة ويسير في طريق النمو السليم ويتعزز انتماؤه لأمته ويزداد تمسكاً بهويته العربية الوطنية.

الانتماء، واللغة، من منظور تربوي:

– إنّ المتتبع للآثار الأدبية المختلفة من شعرٍ أو نثر في أي مجتمع من المجتمعات، وخصوصاً المجتمعات العربية القديمة والحديثة،بعين فاحصة، لابد أن يلحظ أن الشعراء والأدباء قاموا علىَ الدوام بتتبع فكرة الانتماء للمجتمع تتبعاً مقصوداً مستمراً، معززين هذه الفكرة بكل ما أوتوا من قدرات لغوية وفنية وإبداعية.

ففكرة الانتماء إذن هي محور جوهري في الفكر والوجدان علىَ السواء، وعليها كل المعول في إنجاح العملية التربوية. فمن المعروف أن "إعداد المواطن الصالح" مثلاً وهو من أبرز أهداف التربية يقتضي من الأفراد معرفة، إلىَ أي شيء ينتمون.. وكلمة "المواطن" في هذا الهدف تحقق هذه المعرفة، فالانتماء يكون للوطن، وللمجتمع الذي يعيش عليه، وهذا الانتماء سيشكل أكبر دافعٍ لدىَ كل فرد من أفراد المجتمع لكي ينسجم معه، ويعمل بإيحاء من فلسفته وثقافته وتراثه، وحجم تطلعاته وأمانيه وضرورة مواجهة مشكلاته، وبدون هذا الدافع لا تتحقق للتربية الحركة الفاعلة الخلاقة التي تتمخض في النهاية

عن عزيمةٍ قوية تبذل كل الجهود الممكنة في فهم ظروف المجتمع، ومعرفة حجم تطلعاته، ثم تحليلها، وتبويبها وتنظيمها ثم وضع الخطط المنهجية لتحقيقها.

– ولكي نؤكد قوة دافع الانتماء في التفاعل الإيجابي مع أهداف التربية في أي مجتمع من المجتمعات لابد أن نتحدث قليلاً أو كثيراً عن حقيقة الانتماء.. فنتساءل: ما هو؟ وكيف يتشكل! ولماذا هو بهذه القوة؟.. فبعد ذلك يمكن أن ندرك أثره الكبير في شحن الأفراد بالطاقة النفسية اللازمة التي ستشكل الدوافع الذاتية لدىَ كل فرد منتمٍ لتنمية مجمعته وتقدمه، وبالتالي لتحقيق أهداف التربية فيه.

– إن حقيقة الانتماء قضية شعورية نفسية شديدة الخصوصية، متصلة بالعواطف والمشاعر، تنشأ في داخل الفرد وتتشكل تدريجياً مع النشأة الأسرية والاجتماعية عموماً، ثم ترفدها وتختلط بها المشاعر الوطنية والبيئية، ثم المشاعر القومية والدينية ومع كل مكونات المجتمع الثقافية والتراثية والبيئية الجغرافية، بحيث تصبح في النهاية جزءاً ثقافياً فكرياً انفعالياً عاطفياً قوياً في شخصية الفرد الاجتماعية. ومن الطبيعي جداً أن يتجه هذا الانتماء نحو اللغة القومية أو الوطنية بحيث تصبح علامة بارزة على هذا الانتماء، وتكتسب مفرداتها وتراكيبها وأساليبها، ثم أدبُها من شعرٍ ونثر سماتٍ خاصةً مشحونةً بالإيحاء والتأثير، وقابلة دائما للتعبير عن حقيقة الانتماء وقوته، واتجاهاته.

– والأدب من شعرٍ ونثر في أي لغةٍ من اللغات وسيلة عميقة للتأثير في المشاعر والأفكار، واستُخدمَتْ دائماً لتأصيل المفاهيم التربوية والقيم الأخلاقية والوطنية والاجتماعية التي يعتمدها أي مجتمع لإعداد أفراده إعداداً متناسقاً مع فلسفته وأهدافه، وهذه القضايا الأدبية من شعر ونثر، والمتصلة بالمشاعر، ليست فقط عنصراً عميق التأثير، بل هي من أكثر وسائل التربية صلةً بمراكز التأثير لدىَ الإنسان، وتشكيل فِكْرِهِ وتحديد صورة انتمائه لمجتمع وتراثه ونمط ثقافته. ودفعه إلى خدمة مجتمعه والتفاعل معه

بإيجابية سلوكية ملحوظة. والنماذج الأدبية التي تؤكد هذه الحقيقة أكثر من الكثير... ومنها مثلاً أبيات لأمير الشعراء أحمد شوقي حيث يقول في قصيدة عنوانها: "نظراتَ في الحياة":

و لم تَضِقْ الحياةُ بنا ولكنْ زحامَ السوءِ ضيّقَها مجالاً

و لم تَقْتُلْ براحتِها بنيها ولكن سابقُوا الموتَ اقتتالا

ولو زاد الحياةَ الناسُ سعياً وإخلاصاً لزادّتْهم جمالا

ترىَ جِدّاً ولستَ ترىَ عَلَيْهِمُ وُلوعاً بالصغائر واشتغالا

وليسوا أرغدَ الأحياءِ عيشاً ولكن أنعمَ الأحياء بالا

إذا فعلوا، فخيرُ الناس فِعلاً وإن قالوا فَأَكْرَمُهُمْ مَقالا

وإنْ سَأَلْتَهُمُ الأوطانُ أعطَوْا دماً حراً، وأبناءً ومالا

ففي هذه الأبيات تحدث الشاعر ضمن انفعال صادق متوهج عن سعة الحياة وانفتاح مجالها للعمل، وأن هذه السعة لا تضيق إلا بسبب الازحادم على المطامع والشهوات الأنانية، وهو يقدم تفسيراً لمآسي الحروب ويبين أن سببها هو تلك المطامع والشهوات، وأنهم لو استبدلوها بالعمل الحقيقي لأحسوا بالسعادة والجمال، ثم وَصَف الفئة التي ترغب التربية في إنشائها وإعدادها وسمّاها : أهل الواجب، فذكر أن هدفها الكمال ... وهو ما يعبر عنه في المجال التربوي بالوصول عن طريق التربية إلى أقصى قدرات الإنسان الخيرّة في خدمة نفسه ومجتمعه... ثم وصف هذه الفئة بصفات عديدة: فهم أهل جد ولا يشتغلون بالصغائر، وهم لا يهتمون بالرفاهية، ولكن بالسعي للوصول إلىَ التوازن النفسي والرضى بالذات اللذين يؤسسان للانفتاح على الحياة وتحدياتها، ثم هم أهل خبرة ومهارات ففعلهم خير الأفعال وقولهم خير الأقوال.. ثم هم في النهاية يصلون إلىَ الهدف التربوي الأعلىَ المنشود وهو التضحية بكل غال ونفيس في سبيل نمو المجتمع وتقدمه وسلامته وعزته.

ونحن نتساءل هنا تساؤلين: الأول أليست هذه المعاني التي طرقها أحمد شوقي عن طريق اللغة والأدب هي من أبرز القضايا التي تتضمنها المناهج التربوية. وتسعىَ إلىَ إكسابها لأفرادها! والثاني ... أليس أسلوب الشاعر في عرض هذه القضايا التربوية شديد التأثير فيمن يفهم ويعي مثل هذا النمط من الشعر والأدب؟ وثمة تساؤل ثالث: أليس جواب التساؤل الأول يتعلق بموضوعات التربية ومضامينها، وجواب التساؤل الثاني يتعلق بوسائل التربية؟

- إن ما قدمُتهُ مجرد نموذج واحد من الشعر العربي المعاصر .. كما إني لم أعرض نموذجاً من النثر الأدبي...وليس غائباً عن الأذهان أن الموضوعات التي يتناولها أهل الأدب في مجال النثر والشعر لم تترك مجالاً فكرياً أو عقلياً أو تربوياً أو تراثياً أو عاطفياً أو بنائياً أو نفسياً أو غير ذلك إلا وعالجتْه أفضل معالجة... مما يؤكد أنّ للغة وظيفة أساسية للغاية في تأسيس الفكر التربوي ومناهجه وأساليبه ووسائله... وليستعرض أحدنا قصيدة شعرية من الشعر الجيّد قديماً أو حديثاً... أو ليستعرض مقالةً أو بحثاً من المقالات أو البحوث فسيجد أن هذه المقالة أو ذلك البحث يدعم أفكارنا التربوية، ويثري مناهجنا وأهدافنا، بله وسائل تطبيقها.
- وثمة قصيدة شعرية أخرىَ للأديب الكبير والشاعر أيضا: عباس محمود العقاد الذي يسميه البعض فيلسوف الشعراء .. يقول فيها:

صغيرٌ يطلبُ الكِبرَا وشَيخُ ودَّ لو صَغُرا

وخالٍ يشتهي عملاً وُذو عملٍ به ضَجِرا

وربُّ المالِ فِي تعبٍ وفي تعبِ مَنِ افتقرا

وذو الأولاد مهمومَ وطالِبُهم قد انفطرا

ومَنْ فَقَدَ الجمالَ شكا وقد يشكو الذي بَهَرا

ويشقىَ المرء منهزماً ولا يرتاحُ منتصراً

ويبغي المجدَ في لهفٍ فإنْ يظفرْ به فَتَرا

شَكاةُ مالها حَكَمٌ سوىَ الخصمين إن حَضَرا

فهل حاروا مع الأقدار أم هم حيّروا القدرا ؟

ففي هذه القصيدة يتعرض الشاعر لمواقف الناس المتباينة مع تحديات الحياة وصعوباتها.. ويتناول تطلعات النفس البشرية، وإحباطاتها، وسعيها الحثيث للتوازن النفسي دون جدوىَ حسب رأيه، مُظْهِراً تناقضات هذه النفس البشرية.. ومشيراً – ربما – من طرف خفي إلىَ ما يراه من ضرورة الرضى بما تتيحه الحياة لنا دون أن نبتئس أو نسخط ... ومشيراً كذلك إلى أنّ جزءاً كبيراً من التوازن النفسي إنما نصنعه نحن بأنفسنا عن طريق الفكر والتأمل والرضى وسعة الأفق.. ومشيراً كذلك إلى ضرورة الفهم العميق لحقيقة الحياة..

والمتأمل في هذه المعاني يدرك أنه يمكن استثمار مثل هذه الأبيات استثمارا كبيراً في علم النفس التربوي، فهي مفيدة – كما يقول بعض التربويين – في دورات البرمجة اللغوية العصبية، وفي دورات إدارة العمر، ودورات الوعي بالذات، وفي التعامل مع التوتّر النفسي.